بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله المبدئ المعيد، العزيز الحميد، ذي العفو الواسع والعقاب الشديد، أحمده وهو أهل الحمد والتحميد، والشكر لديه من أسباب المزيد، سبحانه وتعالى، قسم الخلق قسمين وجعل لهم منزلتين، فريق في الجنة وفريق في السعير، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن وفقه للخير فهو الرشيد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (الحج: ١)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١)

أما بعد.. فإن موضوع الظلم والحديث عن الظالمين من الموضوعات ذات الأثر البالغ في نفوس المسلمين لاسيما حينما يكون الحديث عن مطالبهم ومآلهم في الدنيا والآخرة.

وحينما أقدمت على هذا الأمر بإشارة من الشيخ يسري صاحب (دار الإيمان) وكنت أظنه موضوعًا هينًا، ولكن سرعان ما تغيرت الظنون وتبددت الأوهام حينما شرعت في القراءة والإعداد لهذا الموضوع، فوجدتني أمام خضم هائل من التصورات للموضوع، ولولا توفيق الله عزَّ وجلَّ ما خرج الموضوع بهذه الكيفية.

ولما أردت تقسيم الموضوع وتبويبه وجدت أن مطالب الظالمين في الدنيا متشعبة وكثيرة تندرج تحت لواء كل شيء جميل في الحياة، وهي وإن كانت مطالب لجميع من يعيش على وجه البسيطة فكان الاختلاف في كيفية التعامل والتعاطي مع هذه المطالب.

وأما مطالب الآخرة: فقد اعتمدت على ما جاء في القرآن الكريم من آيات تتحدث عن مطالب لكل ظالم، واعتُمِد في توضيح وشرح كل مطلب على كتب التفاسير وكان جلُّ الاعتماد على (تفسير الحافظ ابن كثير) لبساطته وسهولة معانيه وألفاظه، و(تفسير الظلال) لسيد قطب والذي يتميز بوصول تفسيراته إلى القلب مباشرة في أسلوب بلاغي عذب وهو المؤهل للحديث عن الظلم بصفة عامة، كيف لا وهو الذي نال قسطًا وافرًا من الظلم فجاءت تفسيراته قريبة من كل قلب ينبض بإيمان.

واستعنت ببعض كتب التفاسير الأخرى في بعض المواضع التي وجدت أن ما لدي من تفسيرات لا تشفي غليلي كقارئ قبل أن أكون كاتبًا.

وقبل النهاية وجدت أنه لابد من وجود بعض الصفحات أوضح فيها أن ما حاق بكل ظالم في دنياه وآخرته إنما كان بما كسبت يداه وأن الله ليس بظلام للعبيد حتى تتم الفائدة.

وأخيرًا فإن كنت قد وفقت في شيء فبعون وتوفيق من الله وحده، والذي أسأله أن يجعل ذلك في ميزاني يوم العرض عليه، وإن كانت الأخرى فمني ومن الشيطان وحسبي أني اجتهدت. ولله الحمد في الأولى والآخرة.

رجب محمود إبراهيم بخيت

تمهيد

قال ابن قدامة المقدسي: الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا والتزهيد فيها وضرب الأمثال لها كثيرة كقوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ....﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ﴾ (سورة آل عمران: ١٤-١٥).

وقوله: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥).

وقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ (سورة يونس: ٢٤).

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ (سورة الحديد: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة الزخرف: ٣٥).

وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ (سورة النجم: ٢٩-٣٠).

وأما الأحاديث: ففي الصحيحين من رواية المسور بن شداد قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم ترجع»، وفي حديث آخر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[1].

---

(١) رواه مسلم.

وفي حديث آخر: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء**»[١].

وروى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه؛ فآثروا ما يبقى على ما يفنى**»[٢].

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتابًا طويلاً فيه:

أما بعد... فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين؛ فإن الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها، تذل من أعزها وتفقر من جمعها كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، سرورها مشوب بالحزن، وصفوها مشوب بالكدر، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرًا ولم يضرب لها مثلاً لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عزَّ وجلَّ عنها زاجر وفيها واعظ فما لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن ما نظر إليها منذ خلقها.

ولقد عرضت على نبينا ﷺ مفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه.

زواها الله عن الصالحين اختياراً وبسطها لأعدائه اغتراراً، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها؟ ونسي ما صنع الله بمحمد ﷺ حين شد على بطنه حجر، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا فلم يخف أن يكون قد مكر به إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خُير له فيها إلا نقص عقله وعجز رأيه.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم.

ومن أحس ما قيل: الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.

والمعنى: أنهم ينتبهون بالموت وليس في أيديهم شيء مما ركنوا إليه وفرحوا به.

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتماء ـ ليس لها أسنان ـ عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت؟ قالت: لا أحصيهم، قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك؟ قالت: بل كلهم قتلت، فقال عيسى عليه السلام: بؤسًا لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك السابقين، كيف تهلكينهم واحدًا بعد واحد ولا يكونون منك على حذر؟!

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**يُؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء** ـ بياض شعر الرأس يخالط سواده ـ **زرقاء أنيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلق فيقال: هل تعرفون هذه؟ فيقولون: نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال: هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الأرحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم، ثم تقذف في جهنم فتقول: يارب أتباعي وأشياعي؟ فيقول: ألحِقوا بها أتباعها وأشياعها**».

وقال عيسى عليه السلام: «**الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها**».

وقيل: «مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله».

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: «انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة، فيقول: انظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم»[1].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩).

وروي عن الحسن قال: بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء، حتى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي، أنفدوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه، فقالوا: إن هذا حديث عهد بريف وما جاء هذا إلا من قريب، فلما انتهى إليهم، قال: يا هؤلاء علام أنتم؟ قالوا: كما ترى، قال: أرأيتكم إن هديتكم إلى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون؟ قالوا: لا نعصيك شيئًا، قال: عهودكم ومواثيقكم بالله، قال: فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئًا، قال: فأوردهم ماءً ورياضًا خضرًا فمكث فيهم ما شاء الله، ثم قال: يا هؤلاء الرحيل، قالوا: إلى أين؟ قال: إلى ماء ليس كمائكم وإلى رياض ليس كرياضكم، فقال أكثر القوم: والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا؟ وقالت طائفة قليلة: ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصونه؟ وقد صدقكم في أول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره، قال: فراح فيمن اتبعه وتخلف بقيتهم، فنزل عدو فأصبحوا بين أسير وقتيل!»[1].

(١) رواه ابن أبي الدنيا.

مطالب الظالمين في الآخرة

لعباد الدنيا مطالب وأماني وغايات، ففي الدنيا أعز أمانيهم أن يكونوا مخلدين فيها، وجمع المال والوصول إلى الجاه والسلطان وتلبية الشهوة والرغبة والبحث عن السعادة والملذات، أكل الطعام، شرب الشراب، يأكلون ليعيشوا يرتعون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل.

ولكن انظر إلى حالهم في الآخرة وقد قاسوا من دواهي الآخرة ما قاسوا فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أبنائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالظالمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البُراء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في حفر الجحيم، ويقولون له: ذق إنك أنت العزيز الكريم، فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم فيها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك اخرجنا منها فإنا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلمون، ولو خرجتم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون.

فعند ذلك يفطنون ،وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم والنار من تحتهم والنار عن أيمانهم والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها ويتحطمون في دركاتها ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من جنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

أما عن سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي يعصي بها العبد، بعضها فوق بعض، الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية[1].

فانظر إلى الهاوية وعمقها فإنه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا ومطالبها فكما لا ينتهي إرب من الدنيا إلا إلى إرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية ولا تنتهي مطالب الظالمين في الآخرة، وأعلاها الفكاك من النار وأدناها جرعة من الماء.

ولْنَرَ معًا مطالب الظالمين فى الآخرة ولنقارن بينها وبين مطالبهم في الحياة الدنيا، ولْنَرَ هوان الدنيا وما بها من ملذات ومغريات.

---

(١) الغزالي: «مكاشفة القلوب» (ص ١٦٩ ـ ١٧٠).